رأيان .. في ديوان ملك عبد العزيز "أغاني الصبا"

١ ـ مقال عايدة الشريف

ان زواج الفنان من الفنانة يكون شركة حياتية موفقة يتناغم الزوجان فيها حبا وعقلا وعاطفة فيثمر أينع ثمار .. هذا الفرض متحقق في زواج الدكتور مندور والسيدة ملك عبد العزيز فنرى الشاعرة تهدي الديوان(*) الى الزوج ويعود الزوج فيقدم الديوان الى القراء ويتساءل في نهاية المقدمة : « هل تراني رددت اليها شيئا من الجميل بهذا الحديث السريع الذي اكتفيت فيه بمجرد تصوير طرف من احاسيس الجمال والانفعال التي اثارتها ولا تزال تثيرها في اعماق روحي أغانيها النافذة » فالشاعرة سبقت ان قدمت الى الجمهور واحدا من اوائل كتبه واثرها الى نفسه ، وهو كتاب « نماذج بشرية » .

عنوان الديوان يوحي بماهيته « اغاني الصبا » تقول الشاعرة في المقدمة ان اكثر شعر الديوان قد كتب بين السادسة عشرة والحادية والعشرين أي في سن الصبا او الشباب الاول . اذن فهو يعطينا صورة شعرية شعورية لما ينفرد به هذا السن من حالتي الحيرة والقلق اللتين تنتابان الانسانة الشرقية المرهفة الحساسة ، وتأثرها بنظرة المجتمع تارة والثورة عليه تارة اخرى .

ولما كان الشعر بالنسبة للشاعرة في هذه الآونة الرومانتيكية حاجة روحية تبلغ بها في كثير من الاحوال حد الصوفية ، فقد اودعته بثها والامها واشواقها فيحلو البث ويفيض الحنين وترتفع الابتهالات ويزداد الشوق والمحبة التي تتسع لكل الوجود .

ومن الممتع حقا في قراءة هذا الديوان قراءة القصائد على ضوء التاريخ الذي قيلت فيه القصيدة بالنسبة لعمر الشاعرة النفسي والوجداني . وهذا لا شك سيكون لنا بمثابة مقياس نتعرف به الى اي مدى كانت الشاعرة مخلصة لقضيتها الشعورية التي ربطت نفسها بها .

اول قصيدة من الناحية التاريخية أرخت سنة ١٩٣٠ وتقابل من عمر الشاعرة الرابعة عشرة ، وكلنا يعرف ما لهذا السن عند الفتاة من خصائص ودلالات ، حيث تشرع الفتاة في تمثل « ذاتها » وتحيا انانيتها هنا وخصوصا في الشرق العربي المتاخر بشكل اكثر محسوسية من حياتها للاخرين .. فهي تناجي قلبها

انت ترجو الحياة حرا طليقا	ناعم البال تحت ظل الامان
انت تهوى الخيال لست تبالي	لو رايت الحمام راي العيان

هنا نجد صورة الحياة الشاعرة الساكنة الهادئة التي ليس لها من ملجأ سوى الاحلام . فهي ما زالت تعشق فرديتها التي تقابل الانا ، ومع ذلك فهو وجدان ابعد ما يكون عن الانانية او الانطواء على الذات .

وتتدرج سن الشاعرة وشعورها وتتدرج معهما ذاتيتها من « الانا » الى « النحن » بمعنى انها تبدأ مرحلتها الدرامية في حياتها مع الجماعة . فتسلك عديدا من الطرق وتستخدم اكثر من وسيلة كي تصل في نهاية الامر الى التكامل الذاتي والتكامل الاجتماعي كي تتغلب على انقسام نفسها وتمزقها في المشاكل المتلاطمة لتخرج بحل . ففي سنة ٣٩ عشرون قصيدة وفي سنة ٤٠ اثنتا عشرة قصيدة وفي سنة ٤١ اربع قصائد وهي تقابل من عمر الشاعرة السابعة والثامنة والتاسعة عشرة وتعتبر بحق قمة المشكلة الشعورية عند الفتاة وبؤرتها ولقد برعت الشاعرة كما يبرع الشاعر الحق في ان يعطينا صورة صادقة للقوة الشعورية الكامنة في جيله من خلال تعبيره عن نفسه .

ومن الغريب ان اكثر من تعرض لهذا الديوان بالنقد والدراسة قال ان الشاعرة على جانب كبير من الانطواء والذاتية ، واظن ان هذه الاراء ينقصها شيء من التروي في اطلاق الاحكام . فمن الظلم حقا ان اطبق مقاييس اليوم على شعر قيل بالامس .. والا ما فائدة ذكر الشاعرة للتاريخ الذي قيلت فيه كل قصيدة ؟ ولكانت في غنى عن ذكر الشاعرة في شعرها بقولها . « قد يتغير رأي الشاعر فيما كتبه منذ اعوام طوال، بل أحيانا فيما كتبه منذ ايام ، ومن الانصاف للشاعرة في هذا المجال ان نلقي نظرة الى التاريخ .

ففي تلك الفترة الزمنية التي تتكلم عنها بالذات كان يسيطر على الحالة السياسية والاجتماعية في مصر شيء من الهدوء الحائر ان جاز هذا التعبير . ففي سنة ١٩٣٦ كانت الاحزاب وعلى رأسها حزب الاغلبية الشعبية قد عقدت معاهدة مع انجلترا تمنح مصر بمقتضاها استقلالا ناقصا كما تمنح انجلترا تسهيلات كثيرة داخل البلاد اثناء الحرب ، كما عقدت معاهدة مونترو سنة ١٩٣٧ التي الغيت بمقتضاها الامتيازات الاجنبية . واذا كان الناس لم يؤمنوا بان معاهدة ٣٦ قد حققت لهم استقلالا كاملا حقيقيا فانها بلا شك قد حزمت المشاعر واوجدت نوعا من الهدنة الموقوتة . فلما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ٣٩ تمنى بعض ابناء مصر ان ينتصر الالمان كرها في الانجليز . ولكن كثيرا من الشباب المثقف كان يشعر بالحيرة والضياع . كان يرى ان هذه الحرب لا ناقة له فيها ولا جمل ، ولئن كان يكره الانجليز من كل قلبه الا انه لم يكن يستطيع ان يفرح بانتصار الالمان لانه كان يعلم انهم لا يقلون عنهم حبا في التسلط والاستعمار ، وما كانت اثارتهم للحرب الاخيرة الا طمعا في استرداد المستعمرات التي حرموا منها بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الاولى . بل لقد كانوا اقرب الى ان يثيروا الخوف والنفور في نفوس الشباب بسبب فلسفتهم العنصرية المتعصبة التي يقسمون

(*) نشر دار المعارف بمصر ـ ١٧٤ ص

بمقتضاها الناس الى اجناس بعضها وضيع خلق للعبودية وبعضها ـ وعلى رأسه العنصر الجرماني قد خلق للغزو والسيادة والسيطرة على العالم والوصاية عليه .

اذا فهمنا كل هذه الظروف ادركنا لم كانت هذه الفترة بالنسبة للشباب عامة لا فرق بين الفتى والفتاة فترة قلق وحيرة وانطواء على النفس خصوصا اذا علمنا ان قيام الحرب استتبع فرض الاحكام العرفية بما في ذلك فرض الرقابة على الصحف .

هذا من ناحية .. ومن ناحية اخرى اذا علمنا ان الاتجاه الرومانسي الذي روج لهشعراء المهجر الشمالي وجماعة ابوللو في القاهرة التي تكونت بين سنة ٣٢ و ٣٥ والذي لعله كان هو ايضا لديهم رد فعل لحالة الاستبداد السياسي وخنق الحريات وهدم الديمقراطية الذي كان في عهد رئيس الوزراء الطاغية اسماعيل صدقي باشا ـ اذا علمنا كل هذا ادركنا اي مثل نفسية كانت امام الشباب في ذلك الوقت .

من كل هذه الظروف كان من الطبيعي ان يأتي شعر ملك عبد العزيز في تلك الفترة شعرا وجدانيا صافيا خصوصا اذا علمنا انها كما قال الدكتور محمد مندور « هامسة في شخصيتها وفي نبرات صوتها وفي نغمات شعرها . » ولكنه من ناحية اخرى جاء يعبر تعبيرا غير مباشر عن تلك الحيرة والانطوائية التي سادت شباب ذلك الجيل بصورة عامة للظروف السياسية التي ذكرتها كما يعبر تعبيرا مباشرا عن مشكلة الفتاة العربية الحديثة حين تخرج الى الحياة المختلطة في الجامعة ثم تريد ان تمارس حقها المشروع في المشاركة في نواحي النشاط الثقافي والرياضي والاجتماعي ، فاذا بالتقاليد البالية والعقليات المتخلفة تقف في وجهها سدا منيعا تحاول ان تشل نشاطها وتقبر حيويتها وتعيدها مرة اخرى الى العزلة والانطواء وتلقى الى نفسها بظلال اليأس فتقول الشاعرة في قصيدتها « ظلام » :

جبال اطلب الغايات فيها ... بها من كل سفاك ووعر
وعربي ثابت ماض قوى ... فاحطم كل جلمود وصخر
وامضي لا اكل ولا امل ... واصعد كل رابية وتل
والتمس السماء أروم فيها ... مقاما عند أزهرها الطل
ولكن الجهاد أذاب صلبى ... فما أقوى على السير الحثث
لو ان الصخر يهوي فوق رأسي ... لينقذني من الداء الخبيث

وتقول في نفس القصيدة :

بودي لو أعيش بعقر نفسي ... اسامرها وتفعمني ارتياحا
فلا ارمى بسلوم من ذنيب ... ولا القى من الرأس امتداحا
اعيش مع الطبيعة في أمان ... تظللني بآيات الحنان
ولا اخشى ذئاب الناس تعوي ... فتحرمني أغاريد الجنان

فالمجتمع بتقاليده البالية هو الذي يرمي بالشاعرة في سجن الوحدة فلا تجد الا الطبيعة مأوى تلجأ اليه وتجد فيه ظلال الامن والسلام .

ولعل تلك الازمة التي مرت بها الشاعرة والتي تمر بها الفتاة العربية المعاصرة هي التي سكبت على بعض شعرها الكثير من الالم والحزن ولكن الالم لا يحطم النفس فلا تكاد تلم بالشاعرة غمرة من اليأس حتى تعقبها فورة من الامل والرغبة في الحياة واقحامها فاذا كتبت « تعبت من الحياة » مطلعا لقصيدة « ظلام » فانها لا تلبث ان تجعل « أحن الى الحياة » عنوانا لقصيدة اخرى :

أحن الى الحياة واشتهيها ... برغم النازلات واجتليها
واطلب قطف ازهار رعتها ... ولو ان الحمام يكون فيها

كما تقف في وجه « الرياح » متحدية في قوة وثبات فتقول مطلعا لقصيدتها « أعصفي يا رياح » :

اعصفي اعصفي يا رياح ... هانا ، وحدي هنا !
لن تنالي من ثباتي مغنما ... انا اقوى منك يا ريح أنا .

وفي مطلع « تحدي » :

فلتعصف الريح فلتعصف صواعقها ... فلتقذف الارض بالاثقال والشرر
فليهدر البحر فلتهزر غوائله ... انا الضعيفة فوق البحر والقدر

وفي ختامها تقول :

ياويحهم كيف ظنوا ان بي وهنا ... انا القوية رغم المظهر الخضر
ما اعنب الجهد مني في مقارعة ... وما الذ صراعا بعده ظفري

فالكفاح كما هو واضح في نظر الشاعرة اعز لديها من الانطواء خلف استار الخجل والهزيمة . فرغم ما نرى في بعض اشعارها من حزن والم فرضتها ظروف الحياة ، الا انها لا تستسلم لهما اذ ان روحها ليست انهزامية او يائسة بل هي تتخذ من الالم اداة للنضال ، فهي تقول في ختام قصيدة « المحروم »

أيها المحروم ... دنياك الجهاد
وجهاد الدهر من بعض المحال
قوة اللذة ان ضاعت فذي
قوة الالام أحمى للنضال

كما تقول في ختام قصيدة « فرحة القلب »

ليس للدهر على سطوته ... ظلمة يفني بها روح السناء
فشباب القلب ان مرت به ... سحب الهم فليست للبقاء
بل لتلقى ذوبها في بحره ... فيزيد البحر ماء وثراء

على انه اذا كان للشاعرة انغام حزينة وانغام ثائرة توحي بالقوة والكفاح بان لها انغاما تملأ قلوبنا بالفرحة وعشق الحياة مثل قصيدة « فرحة القلب » « الى امواج النيل » و « نشوة » التي مطلعها .

تعالي نشوة الدنيا ... وهاتي الشعر من سحرك
تعالي نشوة الدنيا ... وروي النفس من نهرك

ثم قصيدتها الرائعة « بحار الضياء » وفيها تقول :

ضوئي ضوئي فاني نشوى اعشق النور وانعتاق الضمير
اعشق النور والحياة وابغي لو عصرت الحياة كأسا مروق

ان قيود المجتمع ومراعاته والالام التي يفجرها في النفس قد خلق نغمات جهيرة ولكن صادقة قوية مكافحة في شعر ملك عبد العزيز ، غير

دراسات ادبية

من منشورات دار الاداب

قضايا جديدة في ادبنا الحديث	للدكتور محمد مندور
فى ازمة الثقافة المصرية	لرجاء النقاش
نزار قباني شاعرا وانسانا	لمحيي الدين صبحي

ان روحها الحقيقية ، روحها الهامسة وذلك الجلال الصوفي الذي تحدث عنه الدكتور مندور في المقدمة ، انما يظهر اكثر ما يظهر في اشعارهـا عن الطبيعة وكم لها في الطبيعة من اشعار .

انها اي الطبيعة ليست لدى الشاعرة مجرد ملجأ تهرب اليه من متاعب الحياة وقيود المجتمع بل ان لها بها صلة وثيقة ، صلة اصيلة ، فالشاعرة تشعر بذلك الاحساس الصوفي الحار الذي يجعلها تخاطب « نجمة الغروب » بتلك النغمات الاليفة الصادقة المرهفة « صديقتي يا نجمة الغروب » وتناجي « القمر » « الجناح الابيض » وامواج النيل وتخاطب الوردة في تلك القصة الحية المؤثرة « حديث الوردة » والذي يجلها تريد ان تتحد بالطبيعة وتفنى فيها وهو شعور لازمها في كل اطوار حياتها ، نراه في شعرها الاول كما نراه في شعرها الاخير . فهي تتاملها وتصفها وتمتزج بها بل وتعبر بها وتصورها في حالات نفسها الاخرى مما سافصله فيما بعد .

فقصيدتها « انطلاق » خير معبر عن تلك الروح الصوفية التي تريد ان تنطلق من اسر الحدود وان تتحد بالمطلق وتفنى فيه . ففي هذه القصيدة تتمنى الشاعرة لو تنفلت من بين شقي الافق ثم تقول : ـ

وهناك
تنتشي الروح بخمر الانطلاق
حرة
لا ثم اسر لزمان او مكان

وفي ختام قصيدتها « الجناح الابيض » نراها تخاطبه بقولها : ـ

هز الجناح وطر تتابعك العيون ترنو لخفق جناحك الصافي باشواق السجين
يا ليتني اهفو معك، ما بين آفاق الفلك واهيم كالروح الطليق

شعر

من منشورات دار الاداب

الناس في بلادي — صلاح عبد الصبور
قصائد عربية — سليمان العيسى
مدينة بلا قلب — احمد عبد المعطي حجازي
عائدون — يوسف الخطيب

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

وفي قصيدة « بحار الضياء » تقول في الابيات التي ذكرتها من قبل « اني مشوق لعناق الحياة » كما انها في نفس تلك القصيدة تريد ان تعب ذوب الضياء وان تشرب الصبح والاصيل والالق الفوار . وفي قصيدة « صلاة الخريف »

يا لهذا الخريف والليل ساج وندى الليل نافذ بالحنين
يا لهذا الحزين..حزن عميق عمق هذي الحياة للحزين.

وفي قصيدة « غروب » تقول :

وهناك
وسط حضن الماء اشباح جزائر
لفها موج ضباب مبهم الالوان حائر

اما قصيدة « الى نجمة الغروب » باغانيها الثلاث فكلها تعبر عن اشواق الروح وتعلقها بالبعيد والمطلق ، وقد تختفي هذه الاشواق خلف رمز نجمة الغروب ، وقد تسفر عن نفسها كما في ذلك المقطع الذي تحدث عن الانغام التي تعزف في المولد الكبير حيث تقول :

ترجفها الاشجار والاشواق
ولهفة الانعتاق
والحلم بالوصول

او كما في الاغنية الثالثة من تلك القصيدة حين تصور التجاءها الى الله ثم تجليه لها واغداقه على فؤادها ..

هذا فضلا عن الصور الرئيسية الكثيرة التي عبرت بها عن مشاعرها في قصيدة « ذكرى جواد »

والطبيعة في شعر ملك عبد العزيز عنصر اصيل ، فهي تصورها لذاتها او لما توحيه من مشاعر في النفس كما رأينا قبلا في قصائد« الى امواج النيل » « الى القمر » « زهرة البسلة » « الزنبقة » « غروب » « الجناح الابيض » اذ تتخذ منها رموزا لحالات النفس كما في قصائد « في الغسق » و « الينبوع » «بين الامواج » «اعصفي يا رياح » الجزء الاول والاخير من ذكرى جواد واستخدامها لها يتطور بتطور فنها الشعري. ففي البدء كانت تستخدمها لخلق صور جزئية كما هو الحال في الشعر التقليدي . ولكنها ابتداء من عام ٤٠ بدأت تستخدمها كرموز لصورة كلية تظل اطارا للقصيدة بل مادة لها من بدايتها حتى نهايتها ، فالامواج رمز القلق والشك في قصيدة « بين الامواج » والرياح رمز للتقاليد البالية والافكار العتيقة في قصيدة «اعصفي يا رياح» و «نجمة الغروب» رمز للمطلق والبعيد ، وهكذا .. وفي قصيدة « دنيا » نراها تلعب بعدة رموز متوالية هي المطر الذي يطهر الجو ثم الشمس القائظة والريح اللافحة لتعبر عن تتابع حالات خاصة في الحياة نتيجة لتصرفات البشر وتقلبات نفوسهم .

على اننا نلاحظ تطورا مطردا في فن الشاعرة وفي تعمق الاحاسيس والدقة في اختيار الالفاظ الموحية . فقصيدتا « في الغسق » ، « بحار الضياء » مثلا نستطيع ان نعتبرهما قمة سامقة في اتقان الفن الشعري. ولئن كان في بعض القصائد القديمة بساطة في التعبير او خفة في التجربة الا ان صدقها وانطلاق حرارتها تشفع لها ، كما انها تبهجنا بذكر ايام الصبا ومشاعرها الفضة الساذجة ، ومن امثال ذلك قصيدة « احلام الصبا » و « حياة الخيال » و « جنون » وكم يشعر الانسان بالانتعاش والبهجة حين يقرأ قصيدة « فرحة القلب » او «زهرة البسلة»

واذا كانت الشاعرة تعبر بالصور الجزئية او الرموز الكلية فانها احيانا تعبر تعبيرا بسيطا ولكن ينفذ الى اعماق النفس بسبب تنوع

الاسلوب وصدق المناجاة والابتهال واختيار الالفاظ الاليفة الساذجة التي تلج القلب بلا استئذان . ولعل خير مثل على ذلك قصيدة « نجمة الغروب » . ولن اجد ما اقوله فيها خيرا مما قاله الدكتور علي سعد تعليقا عليها في العدد الخامس ايار « مايو » سنة ١٩٥٨ .

هذه القصيدة مثل رائع من الشعر الملموس الذي يهدد بالانقراض في شعرنا العربي . ولا يسع القاريء الا ان يحس لدى سماعه ، احساس الانتعاش بعد غطسة في مياه ساقية تظللها اشجار برية . يساعد على احداث هذا الأثر المنعش المحيي ، ما يفيض في القصيدة من حلو البث والحنين والابتهال والشوق والمحبة التي تتسع لكل الوجود . كل هذه المعاني والاندفاعات النبيلة ، تسوقها الشاعرة بكلمات وانغام يرتعش فيها الصفاء وتتقطر الرقة والعذوبة . ان في قصيدة « الى نجمة الغروب » كل هناء الامسيات والتأملات في ساعة المغيب حين تمتلىء النفس بالحسرة على الضياء المولي وتنفتح ليد الليل والحلم والغيب.

هناك ، خلف غابة النجوم
وخلف استار الغيوم والظلام
تربع الاله .
فالعين لا تراه
وانت يا صديقتي ...
اشارة عليه
رسولتي اليه
الجوهر المنضود في بوابة السماء ..

ليتنا نسمع كثيرا من هذا الشعر الذي نستطيع ان نضعه في ارقى مصاف الشعر الصوفي ..

وفي الاغنية التالية من هذه القصيدة نجد سطورا لا نكاد نجد فيها صورا غريبة او مركبة بل كلا ما بسيطا متدفقا مثل هذه الاسطر.

فجاء من خلفي وقال لي اهدئي
اني قريب اذ دعوتني قريب
في كفي السلام والامان والرضى
سكينة الارواح هداه القلوب

ولكننا نجدها تنفذ الى نفوسنا ببساطتها وصدقها ولو تأملناها لوجدنا انه يندر ان نجد كلمة من كلماتها تخلو من حرف مد. وهذه المدات المتتالية هي التي توحي لي بجو السكينة والسلام الذي تصوره الشاعرة حين قبل الله ابتهالاتها فالالفاظ هنا اصوات موسيقية قبل ان تكون معاني عقلية او صورا مرئية .

ومن العقائد التي تؤثر في نفوسنا ابلغ التأثير رغم بساطتها بل بسبب بساطتها تلك القصيدة القصيرة الرائعة « اشراقة » :

اشراقة منك حبيبي تزدهي الدنيا امامي
اشراقة منك حبيبي كشفت سحب الظلام
اشراقة منك حبيبي بددت كل الظنون
اشراقة منك حبيبي جمعت سحر الفنون ..

ليس في القصيدة معنى بارع ولا رسم رائع ولكنها تغمرنا بذلك التكرار الحلو الذي يحمل الحنان كله واللهفة كلها ، وبذلك التساؤل الحنون ثم بالانتقال الى الخطاب الذي كله ابتهال بذلك التنوع في الاسلوب والصدق في التعبير تنفذ الى قلوبنا .

واذا كانت الشاعرة تصطنع البساطة احيانا والصور المركبة والرموز احيانا اخرى الا انها قد وصلت في مرحلة تطورها الشعري سنة ٥٨ الى كتابة القصة الشعرية ومطولتها الرائعة « ذكرى جواد » والتي لم تحد فيها الشاعرة عن قضيتها الشعورية فهي حينما تعبر عن شعورها بذكرى جواد انما تعبر عن احساس كل ام تجاه اي حادث على شاب . وقد بلغت الشاعرة هنا ذروة الصدق في التجربة لانها بلغت ذروة الصلاة فهي ليست تقبض احاسيسها ، تقيدها وفقا للسوية الخلقية او الوطنية وانما تفيض من نفسها وتتصعد كبخور الصلاة ، ولعل الى مثل هذا الصدق يشير بعضهم عندما يقولون « الشعر صلاة »

وقد دارت حول هذه القصيدة العملاقة معركة نقدية بين النقاد والشاعرة فقد نقدها الاستاذ محيي الدين صبحي وردت عليه الشاعرة ردا تحليليا ثم تدخل الاستاذ احسان عباس في العدد الذي بعده وعادت الشاعرة للمدافعة عن القصيدة . وقد لفت نظري في تعليق الاستاذ احسان عباس على رد السيدة ملك عبد العزيز المنشور « بصندوق البريد » بعنوان « بين الواقع والامكان » عدة امور ، انه قال :

ان تصوير شخص يقف ضد جيش جرار — في الفن — امر مضحك يحتاج لتحقيقه شيئا من المعجزة او الكرامة لا لتكتب له النجاة فحسب بل ليستطيع ان يبقى لحظات في خدمة المعركة . « مع ان هناك امورا واقعية استعيض بها عن المعجزة كالصخرة الواقعية والسلاح الناري والارادة الذاتية والامل في قدوم جيش منقذ وهكذا » .

اذن فالاستاذ احسان يعترف بان هناك امورا واقعية ذكرتها الشاعرة وعددها هو استعيض بها عن المعجزة ، ومع ذلك يرى في تصوير هذا الحادث اسرافا وخروجا على الطبيعة البشرية .

ولاذكر الاستاذ بان الشاعرة لم تذكر في قصيدتها ان البطل كان يقف وجها لوجه امام الجيش ، بل ذكرت انه علم ان جيشا معاديا سيقبل

دواوين نزار قبـاني

من منشورات دار الاداب

الثمـن

قالت لي السمراء	٥٠٠ ق.ل
طفولة نهـد	٣٠٠ ق.ل
انت لـي	٢٥٠ ق.ل
سـامبا	١٠٠ ق.ل
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل

زينـة لكل مكتبة

دار الاداب

بيروت — ص.ب ٤١٢٣

فاختفى خلف صخرة حتى اذا رأى الجيش قادما من بعد امطره برصاص مدفعه الرشاش وهو طبعا على البعد الذي يكتفي لايصال قذائفه الى العدو فحسب . ولذلك لايصح ان نسمي وصفا لهذا الموقف بالنطحات.

واذا كان الاستاذ يرى ان امثال هذا الموقف الذي وقفه البطل خارج عن الطبيعة البشرية ولذلك فان مايرى من هذا القبيل يلحق بالاساطير فماذا يضيرنا ان جعلت لنا الشاعرة من موقف البطل اسطورة شعرية كما ادهشني ما قاله من انه يعجب للروح الفردية لدى الشاعرة تهديها لتقديس بطولة شاذة من فرد وتحجب عنها صورة التكاتف الجماعي البطولي في بور سعيد .

ولكني اقول للاستاذ احسان ان تصوير بطولة فرد واحد ليس الا رمزا لبطولة الجماعة ، وان تصوير الحالة النفسية التي كان عليها البطل لم تكن الا تعبيرا واقعيا كنا نحسه جميعا هنا في مصر . وهو الذي عبر عنه الشاعر صلاح الدين عبد الصبور بقصيدته التي اولها .

ساقتلك
من قبل ان تقتلني ساقتلك .
من قبل ان تغوص في دمي .
اغوص في دمك .

كما احب ان اضيف ان تصوير حالة فردية للتعبير عن حالة عامة هو اتجاه شائع في الشعر المعاصر لم تنفرد به الشاعرة ولعله يجعل الشعر اقرب الى النفس واكثر الفة ونفاذا .

واخيرا فاني اود لو ان الاستاذ احسان يقرأ مانشره في اواخر شهر اكتوبر واوئل نوفمبر الماضي عن معركة بور سعيد في جريدة « الاهرام » ففيها صور كثيرة من البطولات الفردية والجماعية لعلها تقنعه ان بطولة جواد لم تكن حدثا شاذا .

عايدة الشريف

قسم النقد بالمعهد العالي للفنون المسرحية ـ بالقاهرة

*

٢ ـ مقال الحساني حسن عبد الله

مشكلة عروض الشعر الجديد تحتل من ذهني جانبا كبيرا في هذه الايام، ولما كانت صاحبة « أغاني الصبا » من الممثلين او الممثلات لذلك النوع من الشعر ، الباحثين او الباحثات في عروضه ، فقد استقبلت ديوانها بفرح لانه تجربة عروضية لا بد ان تكون ذات نفع عظيم لي وبخاصة انها ظهرت ابان احتدام معركة لم تخب نارها بعد . بهذه الروح العروضية بدات اقرأ ، ولكن ما لبثت ان نسيت الغرض الاساسي الذي من اجله فرحت بالديوان ، ولم ادرك اني نسيته فعلا الا بعد ان اتيت على القصائد كلها ـ وقد احسست بفرح من نوع اخر ، فرح مشوب بالرهبة والجلال ، يشبه الى حد كبير فرح الشاعر بعد انتهائه من قصيدة رائعة ، وكيف لا .. والصور تتلاحق وتترابط في مخيلتي لتخلق في النهاية هذه القصيدة الحية .. هذه النفس الفنية الزاخرة بمشاعر متباينة تباين جداول كثيرة تتدفق من نبع واحد ؟ وعملية الخلق هنا اكثر رهبة وجلالا وغموضا ، ولا عجب فان الخطأ في تمثل احساسات مصورة ينتج عنه انسان شائه الخلقة ، اما الخطأ في تمثيل احساسات في دور التصوير فينتج عنه عمل شائه الخلقة وشتان بين الانسان والعمل . فهل تراني استطيع تمثل تلك الاغاني وهي تضج بالثورة والقلق ؟

اعتقد ان الخطوة الاولى والاخيرة في هذا السبيل هي معرفة جذور تلك الثورة وبنابيع هذا القلق . تقول الشاعرة في مقدمة ديوانها « اكثر هذا الشعر قد كتب مابين السادسة عشرة والحادية والعشرين اي في سن الصبا او الشباب الاول وذلك قبل نهاية الحرب العالمية الثانية .. خصوصا في سنوات ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ـ وقد يتغير رأي الشاعر فيما كتبه منذ اعوام طوال بل احيانا فيما كتبه منذ ايام ولكن رغم ذلك احسب ان هذا الشعر يصور تلك الفترة من العمر في تلك الفترة من التاريخ ، وقد انقطعت بعد ذلك عن قول الشعر حتى اواخر ٥٧ الا قطرات قليلة في العامين السابقين .. »

ومعنى هذا ان شعر الديوان ينقسم الى قسمين كل منهما يمثل فترة من الحياة الفنية للشاعرة ، وبين الفترتين فجوة تبلغ اثني عشر عاما ، واول ما يتبادر الى الذهن ازاء هذا التقسيم ان نبحث الاتجاه النفسي للشاعرة لنرى هل طرأ عليه تغير بمرور الزمن . قبل ان ندلي برأي في هذه المسألة احب ان ابين ان هذه الخطة طفت اخيرا على كثير من الابحاث النقدية التي ظهرت منذ وقت ليس ببعيد ، والخطة في ذاتها سليمة اذ ان الزمن عامل هام في تأثيره على الشخصية ، وتبين مدى هذا التأثير امر مطلوب ـ الا انني ارفض الحكم على نتيجة التغير اذا كان صادرا عن هوى اخلاقي او عقائدي اذ انه من الواضح ان تحكيم مثل هذا الهوى يجعل النقد ذاتيا الى حد بعيد ، ويصبح « تقدم » الفنان و « تقهقره او انتكاسه » امرا بيد الناقد . زد على هذا ان مثل ذلك الحكم يتجافى وطبائع النفوس ـ وهذه مرجع هام لكل معرفة فنية ـ فنحن لانعرف الفنان انسانا ذا خلق عظيم او حقير ، ولا نعرفه فيلسوفا يدافع عن عقيدة ويفند ماعداها ـ وان كنا نعترف بان الاخلاق والفلسفة من مكونات الفنان بصفته انسانا مثقفا ، الا انهما يذوبان في وهج التجربة الفنية التي هي تجربة انسان له ميوله الوقتية وغرائزه المتأصلة وتوراته الطارئة ـ هذه الاشياء التي نريد ان نعبر عن سطوتها وجبروتها فنقول انها من « طبائع النفوس » . والنتيجة بعد قد تكون في صالح الاخلاق والفلسفة او ضدهما ، الا انها نتيجة على اي حال يرضى عنها الفن . وشاعرتنا ـ والحمد لله ـ ليست من اصحاب النزعات (١) ولذا فلن يضيرها ولن يضير احدا في شيء ان اعتبر الاثني عشر عاما التي تفصل بين فترتي انتاجها اثني عشر يوما او اقل ـ فنحن عندما نقرأ الديوان بالترتيب الذي وضعته الشاعرة او باي ترتيب اخر لا نشعر الا بان هذه الاشعار نتاج نفس واحدة متوحدة ، وان مايمكن ان نلمسه من اختلاف ليس الا نتيجة « الميول الوقتية او الغرائز المتأصلة او الثورات الطارئة » . اذن فالزمن لم يزود شاعرتنا بفلسفة جديدة وان كان زودها بقيم فنية جديدة ـ وحتى قدرتها على تعمق الاحاسيس نجدها تظهر بمستويات مختلفة في كل من المرحلتين . واعتقد ان مثل هذه النفس التي نستطيع ان نحس بتوحدها وتفردها تجاه الله والطبيعة والناس لابد ان تكون لها ماساتها الخاصة . فما هي هذه المأساة ؟ الشاعرة لاتعطينا جواب هذا السؤال بسهولة او بوضوح . لقد دفنت ماساتها في صدرها وظلت اسيرة لها ، تثور وترضى ، تبكي وتضحك ، تنبسط وتسام دون ان تفصح عن السبب في كل هذا او ترجع به الى منابعه الاولى لكي نتذوق لونه وطعمه ورائحته فتزداد معرفة واقتناعا . انها تهرب الى الله ، الطبيعة لتهمس لهما بآلامها واحزانها في صور تقطر لوعة وأسى لكنها لاتهمس بذلك الى الناس ، فهل هي تخشى الناس ؟ نعم . انها تخشاهم والدليل على ذلك غموض ماساتها وضنها بجراحها :

(١) اقول هذا مستندا الى شعرها فقط .

في فـؤادي نغـم   حـائر مضطـرب
في فـؤادي نغـم   ليتـه ينسكـب
غامـض كالـدجى   دامـع كالمسـاء
مرهـف كالنـدى   ناعـم كالضيـاء
فيـه شوق خفـي   وولـوع عجيـب
فيـه جـرح نـزى   كجـراح المغيـب

وانطـواؤهـا على نفسها (٢) :

بودي لو اعيش بعقـر نفسي   اسامرها وتغمرني ارتياحـا
فلا أرمـى بـلوم مـن ذنيب   ولا القي من الرأس امتداحـا

وروح اللامبالاة واليأس التي تسكن اليها :

افعل ما شئت يا دنيا فقد فاض الالم
لم اعد احفل .. سعدا ما الاقي ام نقم

فاذا لم نستطع ان نقيم من غموض المأساة والانطواء على النفس وروح اللامبالاة واليأس دليلا على خشية الناس فان الشاعرة تقدم لنا دليلا اخر ادق واخفى ، فهي تثور ثورة عاتية في همس حينا وفي جهارة حينا اخر ، وتعلن غضبها وتحديها في قصيدتين يتيمتين اعتقد ان معظم القراء سيقفون عندهما مندهشين متسائلين : لم كل هذا ياسيدتي وما عهدنا منك الا الرقة والعذوبة والصفاء ؟ وانا واثق ان الشاعرة ستضع طرف اصبعها على شفتيها وتطرق الى الارض تبحث عن جواب لاتعرفه . تقول في قصيدتها « اعصفي يارياح » :

اعصفي . اعصفي ياريـاح   هانـا وحـدي هنـا
لـن تنالـي من ثباتي مغنما   انـا اقـوى منك ياريح انـا

وتقول في قصيدتها « تحدي » :

فلتعصف الريح فلتقصف صواعقها   فلتقذف الارض بالاثقال والشرر
فليهدر البحـر فلتهدر غوائلـه   انا الضعيفة فوق البحر والقدر
فليزبد الناس فليرغوا ويضطربوا   انا الضعيفة فوق النار والبشر

بل ان هذه الثورة العاتية لتظهر بصورة اخرى غير مباشرة في قصيدة ثالثة هي « كبرياء يتيم » لقد جعلت ذلك اليتيم يرفض العطف والحنان بحجة انهما لايقومان مقام الحب الذي حرمه منه اليتم . والعطف والحنان من القيم الاخلاقية التي تواضع عليها الناس في كل المجتمعات ــ وحتى لو استسغنا تلك الحجة فان القصيدة تدل دلالة واضحة على ان الشاعرة تطلب من مجتمعها اكثر مما ينبغي ، بل انها تطلب مستحيلا عندما تحسب ان علاقاتها بالناس يمكن ان تسمو دائما الى درجة الحب :

قد الفت الجوع ، لا لا تعطنـي   ذلك العطـف ولا هـذا الحنـان
امض عني ، لست امي او ابـي   امض عني فـي امـان

هذه الغضبة الفريدة فى الديوان التي تتحدى فيها الشاعرة الناس بالرغم من احساسها بضعفها لاتفهم بوضوح الا اذا قدرنا عمق الباعث عليها ــ لقد ضاق صدرها بالمأساة التي لاتستطيع الافصاح عنها ، وهي تحس احساسا عميقا بان الناس او مجتمعها بالذات يقف عقبة في سبيل ذلك بما يحمله من مواضعات اخلاقية وعقائدية ــ فلتلطم هذا المجتمع في فورة نقمتها وضيقها وليحدث بعد ذلك مايحدث . ومع هذا فلم ولن يحدث شيء لانها لم تلطم مواضعاته وتقاليده بالذات (١) لدينا اذن مأساة غامضة يكشف اصطدامها بالمجتمع عن جزء من طبيعتها اما الجزء الاخر فتكشف عنه قصيدة « المحروم » حيث تقول :

انت لن تقوى على غل الزمـن   ايها المحروم ... ما أقسى الحياه
فاستسغ حرمانك المـر لكـي   تستطيع العيش في هـذي الفلاه
نضب الماء ولم يبق سـوى   ذلـك النبع فاقدم واشـرب
اغمض العينين واشـرب باسما   وتخيله رحيقـا .. واطـرب

ان الشاعرةفي نهاية قصيدتها تقدم لنا جواز مرور لذلك النبع البغيض على نفسها ليدخل به الى نفوسنا فتقول ان ذلك الشيء الذي قدر لها ان يكون متعتها الوحيدة بعد ان نضب معين كل متعة ، ذلك الشيء الذي لم يبق سواه لان المجتمع يرضى عنه ، ذلك الشيء الذي نحس من الابيات المتقدمة احساسا قويا بان الشاعرة تمقته وتكرهه تقول انه « الفن » من يصدق ذلك ؟.. انا ــ على الاقل ــ لا اصدق . انت تغمضين عينيك ، ومع ذلك تريدين ان تظهري باسمة طروبة . من اجل من ؟ ولماذا ؟ .. أمن اجل المجتمع ؟ ان المجتمع لايطلب منك ان تقاسي كل هذه الالام في سبيل الفن . اظن ان المأساة اصبحت اكثر وضوحا . الشاعرة تملك روحا قوية فياضة دائمة الظمأ الى الحياة ، تود لو تعب من كـل ينابيعها ، وبصورة من الصور وقف المجتمـع في سبيل ارواء هذه الروح المتفتحة ، لقـد قدم لها كأسا تواضع النـاس على انها لذيذة فماذا تفعل ومجتمعنا ــ وبخاصة في الفترة التي كتبت فيها الشاعرة معظم شعرها ــ لم يتعود ان يحترم أحاسيس المرأة وعواطفها ؟ ليس امامها الا ان تغني ألمها وحزنها ويأسها وتقف امام الطبيعة تستوحيها ولكن هذه ومعها الحق ــ تبخل عليها كثيرا :

قضيت ليلي استوحيك ياقمـر   فلذت بالصمت والالام تستعـر
الجو مختنق والقلـب مكتئـب   وانت وحـدك تعري السر يا قمر
ها هو الحسن كسا ظل المسـاء   ونسيم الليـل رقـراق رطيـب
آه والحسن نضا عنـه الـرداء   وفؤادي صامـت ليـس يجيـب

ولما لم يستجب لها القمر يممت وجهها شطر « نجمة الغروب »فكانت هذه اكرم من القمر ، لقد جادت عليها بثلاث اغنيات تحسرت في الاولى على بيتها القديم الذي كانت تحلم فيه حرة طليقة ثم تركته الى البيت الجديد حيث يرتفع في الغرب جدار يسد الطريق الى نجمتها ، او حيث يوجد ناس اخرون لهم تقاليد تابى الحرية والانطلاق ، وفي الاغنية الثانية يظل الجدار قائما اما في « الثالثة » فان الاشجان :

« تنساب فـي سكـون ،
تنساب من مسارب في النفس لاتبين ،
وتحـرق الجدار في تهافت حزيـن .

وحملت الشاعرة ينبوعا من اشجانها ودموعها باحثة عن الخلاص ووجدته في .. الله .. الرحمن .. الرحيم .. حقا ان الروح الدينية تبدو في هذه الاغنية وفي غيرها من اغاني الديوان واضحة قوية ، ولكن لا اعتقد ان قلق تلك السنوات الطوال ينفض بهذه السهولة فـي مناجاة صوفية ــ الا انه لامناص من الاعتراف باصالة الروح الصوفية في الشاعرة ــ انها تريد ان تمضي الـى :

---

(٢) يقول الدكتور مندور فى مقدمة الديوان « شعر ملك عبد العزيز من شعر الوجدان الصافي واغلب انفعالاته كانت من مشاهد الطبيعة التي تجاوبت مع روحها ، ومع ذلك فانه وجدان ابعد مايكون عن الانانية او « الانطواء على الذات » فانا اعرف الشاعرة شديدة الحساسية بأفراح الغير واتراحهم دائمة المشاركة في قضايا الوطن ولا ادل على ذلك من مطولتها الرائعة عن شهيدنا جواد حسنى » وانا لا اوافق الدكتور على رايه هذا لانى ــ اولا ــ افرق بين الانانية والانطواء ــ وثانيا ــ لان قصيدة جواد فريدة فى الديوان اذا استثنينا قصيدة شيفشنكو المربية . ــ وثالثا ــ لان مايعرفه الدكتور عن الشاعرة لانعرفه نحن ــ وهذه المعرفة غير مجدية بالنسبة لنا .

(١) كأني بالشاعرة أحست أنها تغالط نفسها فأطلقت هذه الصيحة الفريدة فى الديوان اجمعه :

« ولعلى ان يبد مني احتمال   اخدع الدهر عن شعوري وحسي »

« حيث لا ثم شطوط او حدود قائمـــة
وهنـــاك ..
تنتشي الروح بخمر الانطلاق ،
حـرة .. لا ثم اسر لزمان او مكـان
قطـرة .. ترتد للبحـر العميق ،
حيث لا ثم شطوط او حدود قائمة »

ومع هذا الحب الصوفي والتوق الى الذوبان في المجهول فقـــد تناثرت بعض ابيات ـ غير مقنعة ـ تنفث عذاب الشك والحيرة مثل :

راحـة اليأس نعيـم لا يـراه غير من عذب في الشـك نهـاه

انني ادعو الشاعرة الى ان تنفض عن فؤادها كل مايثقله من مشاعـر سجينة فان مجتمعنا الان ارحب افاقا واكثر تسامحا وأعمق وعيا ـ انـه يقدر الشاعرة التي لاتنسى طبيعتها ، انه يحترم « الانثى » . والامـر الذي الاحظه في هذا الديوان ان السيدة ملك قليلا ماتبدو « كانثى » بل انها تتحدث عن نفسها بضمير المذكر فتقول مثلا :

يا صفاء السماء يا صخرة الشمس ويا بهجة الوليد
ضوئي بقلبي اني « ظاميء » لنور جديد

وفي النماذج القليلة التي اصغت فيها الشاعرة لصوت انوثتها اتـت باشياء جميلة رائعة مثل قولها من قصيدة « اشراقة » :

مـن تـراه يا حبيبـي مـن تراه احـزنـك
اطفأ البهجـة فـي عينيك لمـا ألمـك
او ما تـدري حبيبـي ان حزنـي مـن اساك
وضياء الكون في عينـي لمـح مـن صفـاك

ومثل خطابها لزهرة البسلة بقولها :

كم قد وضعتك فوق صدري فانتشى وتعطرا
فشعرت بالقلب الكئيب يفيق من صمت الكرى
او بين شعري فازدهى ببها جمالك ناضرا
فهفت اليك نسائم عبثت به فتبعثرا .

ومن الطبيعي لمثل هذه النفس التي تحس قلقها ان تبحث عن وسيلة جديدة للتعبير تستجيب لتلك الروح المتوترة المصطخبة ، فكان ان احدثت الشاعرة بعض النظم الوزنية العفوية داخل الاطار القديم ، ولكنهـا مالبثت ان اهست بحاجتها الى كسر الرتابة التقليدية في البحـور المشطرة فاستخدمت الطريقة الحرة ، وقد كتبت بها اروع قصائـد الديوان ، ولكن الحقيقة ان غموض ماساة الشاعرة ، وعـدم تبينها او تبيانها لجذورها المثيرة في ارض مجهولة جعل الروح الفنانية التـي تؤثر التشطير والتنغيم الوئيد هي السائدة في الديوان . ولو اردنا ان نتحدث عن قيمة هذه الروح بصفة عامة وبالنسبة الى عصرنا بصفـة خاصة ، ومدى ملاءمة الشكل الجديد للفناء ، ومقدار توفيق الشاعـرة في استخدام الاطار القديم والاطار الجديد ، وشرح طرق الاداء واساليب التعبير التي توسلت بها الشاعرة الى ايصال مشاعرها وافكارها الينـا ـ لو اردنا ان نتحدث عن كل هذا لطال بنا الحديث ولارهقنا القارىء . وانا اعتقد ان القارىء ـ اي قارىء ـ يضيق بكل شرح يقول له استمع هكذا والا فلا لا ، وحتى لو سقنا طريقة تذوقنا كواحدة من طرق كثيـرة فان هذا لايقنعه لانه يدرك اننا نسوقها بحسبانها المثلى ، وان ماعداهـا لايرتفع الى مستواها . ليس معنى هذا انني اعترض على تبيان المسارب والمعابر التي تنفذ من خلالها ايات الجمال الفني الى نفوسنا فمما لا شك فيه ان القيم الفنية الرائعة تكونت وتتكون على مر الزمن من مجموع هذه الشروح المرهفة المفسرة للجمال ـ الا اننا نعتقد ان تبيان المآخذ التـي قصرت بالاثر الفني عن بلوغ الدرجة المرجوة اجدى على قارئنا وبخاصة في هذه الفترة من حياتنا الادبية التي تشعبت فيها مذاهب علـــم الجمال . واستعير كلمة من الدكتور مندور قالها منذ سنين وأرى اننـا نفيد كثيرا من تطبيق ماجاء فيها يقول في كتابه « في الميزان الجديد » : « النقد هو دراسة النصوص الادبية والتمييز بين الاساليب المختلفة وهو لايمكن ان يكون الا موضعيا فهو ازاء كل لقطة يضع الاشكال ويحله . النقد وضع مستمر للمشاكل ، والصعوبة هي في رؤية هذه المشاكل ، وهي متى وضعت وضح حلها لساعته . والذي يضع المشاكل الادبية ليس علـم الجمال ولا علم النفس ولا اي علم في الوجود ، وانما هو الـذوق الادبـي . » نحن بحاجة الى اتخاذ هذه الفكرة منهجا بجانب المناهـج المختلفة التي تكتظ بها بحار النقد عندنا . نحن بحاجة الى الاعتراضات الجزئية والاحتجاجات الجانبية التي تنبع من نفس ذواقة بقدر مانحـن في حاجة الى معرفة اخر النظريات النفسية والاجتماعية والجمالية لنرى اين يقف منها ادبنا . والواقع اننا اعطينا كثيرا من الاهتمام لهـذه النظريات حتى اصبحنا نتشبث بكل كلمة في النص توحي بشيء منها ، وليس من المهم بعد ان نطري ثقافة الشاعر وما جاء يبشرنا به ان نغفل عن قصد او بلا قصد « الهنات البسيطة » التي تنخر في جسد العمـل الفني . مثل هذه الحالة لا ارضى بها ولذا فاني سأضع خطوطا تحت بعض ما لم يعجبني في ديوان الشاعرة ملك عبد العزيز .

في قصيدة « طرب الانين » نحس بما يمكن ان تصنعه « فكرة عقلية » تختفي وراء العمل الفني لتحركه كيف تشاء. والواقع ان الشاعرة تملك عقلا يستيقظ كثيرا ليفسد كثيرا ، في تلك القصيدة تريد ان تقـول ان النفس الحزينة ترتاح الى الانين والنواح والظلام ، اي الى كـل مايتوافق وحزنها من مظاهر الطبيعة . هذه الفكرة تمثل حالة عامة مـن الحالات التي تكتنف النفس الشاعرة ـ ولكن « الاعلان » عن هـذه الحالة عمل غير شعري ، والطبيعي اننا في حالة حزننا ننظر الى الطبيعة نظرة تتضمن هذا الحزن وتضفيه على مظاهرها المختلفة اضفاء متساوقا، اما اذا قررنا اننا حزانى ولهذا فلا شيء يطربنا في الطبيعة غير النواح والانين والظلام فان هذا التقرير يعد تدخلا ذهنيا يلحق العمل الفنـي « بالاعـلان » :

كتـابان خطيران

عارنا في الجزئر : لجان بول سارتر

الجلادون لهنري اليغ

ترجمة عايدة وسهيل ادريس

دار الاداب

ليس حسن الحياة حسنا بسيما(١) أن دهى القلب بأسها وأساها
ليس لحن الوجود لحنا سعيدا ان رمى النفس شجوها وشقاها

واطرب شيء يختلف اختلافا كبيرا عن الراحة . نحن قد « نرتاح » للحزن ولكنا لايمكن ان « نطرب » له ان عقل الشاعرة ينتهز فرصة وجود « تضاد بين الطرب والانين » فماذا يصنع ليبرز هذا التضاد . لقد حمل الحزن والاسى جانبا من الطبيعة وترك جانبا اخر بلا مبرر ، وليس هذا « عدلا فنيا » ـ ان صح التعبير ـ صنع من الشمس والزهرة رمزين للبهجة والجمال دون اضافة صفات ليقول انهما لايمكنهما ان يمحوا شيئا من كآبة الفؤاد الحزين :

في ضحاها لا تملك الشمس ان تبعث في القلب لمحة من ضياها
في بهاها لا تملك الزهرة ان تمنح النفس قطرة من نداها

ولكنه عندما انبرى ليقول لنا ماذا « يطرب » ذلك الفؤاد قال انه « انين لشجي الاطيار فوق رباها » ، فلماذا اضاف صفة الانين لصوت الاطيار الشجي ؟. لانه يعلم ان ذلك الصوت يمكن ان يكون اغنية فرح كما يمكن ان يكون اغنية حزن وانين . هنا نحتج على هذا العقل متسائلين : الا يمكن ان تنقلب الشمس والزهرة رمزين للحزن والكآبة باضافة صفة مناسبة لكل منهما ؟. والنتيجة ان الفكرة الذهنية السابقة التي ارادت الشاعرة ان تعبر عنها آلت الى الشكل الآتي .

« لاتملك الشمس والزهرة ان تطربا الفؤاد الحزين ، وانما يطربه انين الطيور » . وأظن انه من الواضح الفرق بين الفكرة في شكلها الاول وشكلها الثاني . هذه هي خطورة الافكار الذهنية التي يعبر عنها تعبيرا تقريريا . اذا كان عقل الشاعر هو المحرك الخفي للقصيدة فان « عقل الناقد » يستطيع ان يرده على عقبيه .

ومن هذا القبيل ذلك التجريد الذهني في قولها تخاطب قلبها :

ايه تبغي قتل العواطف في واديك كيما تنال فيه رجاءك .

الشاعرة تريد ان تصور لنا حالة من حالات السأم والضيق الذي ينشأ من توفر المشاعر وتتابعها فتتخيل ان قلبها يود لو تموت عواطفه ومشاعره ـ لماذا ؟ لكي ينال رجاءه . وواضح ان هذا الجواب لايكفي بل انه لا يرضي ، لان في موت العواطف والمشاعر موت كل رجاء . والشاعرة نفسها تدرك هذه الحقيقة ، ولم تغب عنها ركاكة ذلك التعليل فراجعت نفسها قائلة :

ان في قتلها فناء لروحي ان ـ قلبي ـ لفي بقاها بقاءك

فاذا كانت الشاعرة تدرك ان في بقاء عواطفها بقاء لقلبها ، فلماذا اذن ساقت ذلك التعليل الركيك ؟

ان عملية المراجعة فقدت ما كان يمكن ان تدل عليه من القلق والتوتر النفسي لان هناك عقلا يحلل ويجرد ويقضي على التحام الاشياء ووحدتها.

وهناك ظاهرة اخرى نلاحظها في الديوان وهي عدم اتساق الرموز التي تستخدمها الشاعرة واطرادها في كل اجزاء العمل الفني . في قصيدتها « بين الامواج » ترمز بالامواج الى صروف الحياة وتقلباتها فتقول :

ايه يا امواج ماذا تبتغين أغرقي ، او قربي الشط الامين

هذا الرمز الذي هو الامواج او الماء يجب ان يظل واحدا في كل أجزاء القصيدة لانه يشير الى شيء سواه ، ولكن الشاعرة تفجأنا باستبدال الرمز في جزء اخر هو الحميم او النار . وليس هذا هو العيب ـ وانما العيب ان يفقد الرمز الاول رمزيته . ان الشاعرة تخاطب الامواج فتنسى انها بديل عن شيء اخر قائلة :

انت من ماء ولكن من جحيم لايطفي النار ، بل يدعو الثبور
انت يا ماء وقود للشرر يحرق الروح بنار تستعر

انها عملية تجريد اخرى يقوم بها عقل الشاعرة لابراز التضاد بين الماء والحميم ، ولكن هذا التضاد يفقد ما كان يمكن ان يحمله من جمال ، لسبب بسيط هو اننا لسنا ازاء ماء حقيقي او نار حقيقية ، وانما هي رموز تخفي وراءها أشياء . وتبدو هذه الظاهرة ايضا في قصيدة « المحروم » حيث تستعمل الشاعرة « البدر ـ والماء ـ والظل لترمز الى النعيم والحب والسعد » تقول في المقطوعة الاولى :

« عندما البدر يوافي بالضياء
ايها المحروم اغمض ناظريك
انت حيران وفي الافق هدى ليس هذا النور يعني مقلتيك . »

وبعد مقطوعتين تستعمل فيهما « الماء والظل » في مكان « البدر » تقول تاركة الرمز ولاجئة الى المرموز اليه مباشرة :

« عندما يسطع في الدنيا النعيم
ويشيع السعد في كل مكان
ويشع الحب من كل فؤاد
ايها المحروم عادالك الزمان . »

وظاهرة ثالثة نلاحظها وهي ان الشاعرة لم تتخلص بعد من الصور المحفوظة الجاهزة التي فقدت دلالتها او كادت على مر الزمن مثل قولها من قصيدة « ظلام » :

فأضحك ان شدا طير وغنى واذرف ان بكت عين السماء

وقولها من قصيدة « فرحة القلب » :

السما تذرف من ادمعها وسحاب الافق قد غشي ذكاء

ولسنا في حاجة الى ان نقول ان بكاء السماء ، استعارة ميتة .

وظاهرة رابعة ، هي الجمع بين الحسي والمعنوي في مجال صوري واحد . مثال ذلك قولها من قصيدة « ذكرى جواد » .

« بل دون خطوكم لباب جنتي بحار ..
أملؤها بالدم ، بالدموع ، بالغضب . »

فاني أحس باضطراب في الجمع بين الدم والدموع ـ وهما صورتان حسيتان ـ والغضب الذي هو امر معنوي ليست له قوة التصوير الحسي في الصورتين السابقتين . كذلك قولها من نفس القصيدة حيث تجمع بين الردى والدم :

« والليل مخضوب الشفاه بالردى والدم »(١)

والظاهرة الخامسة ان الوزن كثيرا مايجبر الشاعرة على الخضوع له ولو كان في هذا خروج على قواعد اللغة ، مثال ذلك قولها من قصيدة « انطلاق » حيث عطفت مجزوما على مرفوع :

أشرب الزرقة في اكواب روحي الهائمة
واغافلك غريقا في رؤاك الحالمة .

وقولها من قصيدة « وصية شيفشنكو » حيث جزمت فعلا بلا جازم :

عندما ينساب للبحر دم الاعداء طوفانا حبيبا
كل شيء سوف أهجره .. بعيدا او قريبا

وقولها من قصيدة « حديث الوردة » :

لست ابغي القطف يا اخت وما انا ممن يقتلون الزهر

(١) كلمة « حسن » من الكلمات المكتفية بذاتها ، التي لاتحتاج الى صفة تؤكدها .

(١) يذكرني هذا بمطلع قصيدة للشاعر عبد الباسط الصوفي يبدأها هكذا « بالرعب والويسكي .. »

الكلمة أقوى من الموت

«الى جلادي الكلمة في بغداد من الشعراء الذين خانوا رسالتهم»

ما زلنا نخطر عبر الموت
ونكسر أغلال الظلمه
من اجل ربيعـك يا كلمه
ونزين ، كي نلقى وجهك ، حيطان الدار
ونرش دروبك وهج النار
كي تاتي يا احلى نغمه
كي يصعد صوتك مختالا عطر الاوتار
فيعيش على صوتك شعبي مرفوع الراس
وتغني حبك غابات عند الاهراس
ونشيلك عبر حناجرنا قسم النقمه

★

ماذا في ارضك يا بغداد
يا سفرا عاشت في حقله ..
.. غاب الكلمه
يا دجلة يا ام الحكمه
ماذا يفعله في أرضك عباد الموت
عشاق نفايات الامراء
الكلمة تخرج مجروحه
تنسل على درب مظلم
يجلدها من اقسم للكلمة بالاخلاص
فأتت نحوه
وأشاعت في نغمات مقاطعه الاحساس
وغدت تعتز به الكلمه
فاذا بالغادر يخنقها ليعبيء في جثتها العار
كي تنغم عرسا للكفار
لكن لكلمه لم تنطق
بقيت في الظلمة تنفض عنها ثوب العار
حتى تسترجع خضرتها
وتعيد لاحرفها الانوار
حتى يحضنها قلب الناس

★

لن تفنى الكلمة يا جلاد
يا لصا يعبث في بغداد
هي اقوى منك ومن تحنانك للظلمه
لكن ستهد لك العرشا
وستسلب منك ومن نغماتك كل الدفء
لتعود حقيرا مرذولا في دنس الحمأة تتمشى

دمشق **ماجد حكواتي**

بكسر « الزهر » خضوعا للقافية المكسورة .

وقولها من قصيدة « الينبوع » :

« عشت طول العمر حيرانا عليك »

فليس في اللغة « حار على » ، وحتى في عاميتنا لانستعمل حرف الجر « على » مثل هذا الاستعمال .

واخيرا لانترك الديوان قبل ان نشير الى بعض الاخطاء العروضيـة تاركين مناقشتها الى فرصة اكبر . وبعض هذه الاخطاء يكون ظاهرة ، وهي أخطاء الشاعرة في البحر الخفيف ـ فقد تكررت هذه الاخطاء في اربـع قصائد هي « بحـار الضياء » و « طرب الانين » و « القلب الباكـي » و « يتيمة » ونضرب أمثلة لكل منها على الترتيب :

« نشرب الالق الفوار والصحو وروحا من الربيع مصفى »

« هي في السما جلال ومجد ، تغمر الكون بالصفا وسناها »

« غير اني من قبل لم اسمع النوح ، ولم أر الانين غناءك »

« فسرت في دجى المصائب لاتدري متى الضحى او متى مرساها »

والواقع ان مثل هذه الاخطاء قد شاعت في هذا البحر وهي جديرة بالدراسة . كذلك تخلط الشاعرة بين « السريع » و « المنسرح » فـي قصيدتها « زنبقة » خلطا لا اراه مستساغا . وتخطىء في الرمل فـي قصيدتين تقول في الاولى « كبرياء يتيم » :

سوف أحيا مفردا ، وكذاك عشت .

وتقول في الثانية :

« انني من قبل لم اعرفه ـ كان الظلم يحجبه ـ كئيبا » (١)

وفي مطلع قصيدة « فلسفة الحزن » أحسست باضطراب عظيم حيث تقول الشاعرة :

مازلت تحلم يا فؤادي الغريـر ؟ ليت الامـاني تبث فيـك السرور
ليتك تقضي العمر فـي فرحـة يهنيك لحنـك ثـم لحن الطيـور

وباقي القصيدة من « السريع » . وتخلط في قصيدتها « الى امواج النيل » بين « فاعلن » و « مفاعلن » حيث تقول :

« أرقصي ، أرقصـي
أرقصـي عرائسـي .. »

وبعد ، فاني اكرر دعوتي للشاعرة الى ان تفرغ كل ما في فـؤادها من انغام وان تصغي لصوت أنوثتها فأنا اعتقد ان احساسات الانوثة لاتفنـى ولكنها تتبدل وتتنوع على مر العمر ، وان لاتسلم نفسها الى الهـدوء والجمود وهي القائلة :

اعصفي ، اعصفي ياريـاح انني ارجـوك وحيا للفنـون
هداة النفس سبيل للجمـود وجمود النفس عقم لايبـين.

القاهـرة **الحساني حسن عبد الله**

---

(١) هذا اذا لم يكن الفعل « يحجب » مجزوما ـ وفـي هذه الحـالة يكون في البيت خطأ نحوي .